

التلقي النقدي المعاصر للقصيدة الصعلوكية وعملية إنتاج التأويل النصي  
**Critical Contemporary Reception of the pre-Islamic  
Brigand-poetry and the Process of Text Interpretation**

بلوصيف كمال \*

BELOUCIF Kamel

جامعة باجي مختار عنابة - الجزائر

University Badji Mokhtar Annaba Algeria

taabata\_charan@yahoo.fr

تاريخ النشر: 2022/12/02	تاريخ القبول: 2022/09/04	تاريخ الإرسال: 2022/08/03
-------------------------	--------------------------	---------------------------

ملخص البحث

تنشد هذه القراءة الحفر في عملية تلقي القصيدة الصعلوكية في بعض مدونات نقدنا العربي المعاصر، وتعزيب هذه القراءات بنماذج لعملية التلقي للنص الصعلوكي وكيفية إنتاج الدلالات منه، فالذي لاحظته عند قراءتي للطروحات النقدية التي تناولت القصيدة الصعلوكية، أنها أمكنت الخطاب النقدي من إنتاج دلالات نصية وتأويلات جديدة على مستوى الشعرية العربية، مما أثيرى الثقافة العربية بقراءة الخطاب الشعري الجاهلي من مستويات فنية وإيديولوجية حديثة، نظرا لما مثلته خطابات القصيدة الصعلوكية من طروحات إيديولوجية وخروقات لغوية، كسرت أو قوضت بها المنظومة القبلية ثقافيا وفنيا.  
الكلمات المفتاحية: تلقي، تأويل، قصيدة صعلوكية، إنتاج الدلالة، فلسفة الرفض.

**Abstract:**

This study aims at looking into the process of receiving the pre-Islamic Brigand-poetry in some corpora from our modern Arabic criticism, and strengthening this analysis with some examples of the process of receiving the Brigand-text and how to produce connotations from it. I noticed while analysing the critical presentations of the Brigand-poetry that they enabled the criticism discourse to produce new textual connotations and interpretations in the Arabic poetry, which abounded the Arabic culture with new artistic and ideologic levelled readings of the poetic discourse, according to the representations of the Brigand-poetry discourses being ideological

\* بلوصيف كمال: taabata\_charan@yahoo.fr

presentations and linguistic violations that broke the Arab tribal community both culturally and artistically.

**Keywords:** reception, interpretation, Brigand poetry, producing connotation, refusal philosophy.



## 1. مقدمة

من خلال عملية القراءة النقدية التي اشتغلت على القصيدة الصعلوكية، وحاولت أن تؤسس من خلالها لصياغة خطاب جديد لما كان معهودا في الشعرية الجاهلية، أحاول التأسيس في هذا العنصر من البحث لعملية التلقي وكيفية إنتاج الدلالة والتأويل النصي لدى نماذج من الدراسات النقدية المعاصرة لهذه القصيدة . إذ يمكن من خلال التوسل بآليات المناهج النقدية الحديثة أن نقرأ نصوص الصعلكة لإنتاج دلالات فنية وجمالية، تتماشى مع السياق الثقافي للحقول النقدية .

وبذلك لا تبقى القصيدة الصعلوكية مجرد خطاب هامش يمثل حالة اجتماعية في العصر الجاهلي، أو هي تصوير لواقع طبقي مثلته السلطة القبلية، مما حدا بأن يكون ذلك الخطاب التمردى على كل الأشكال الفنية والقيمية في المجتمع.

فمن النصوص الصعلوكية التي تعهدتها النقاد بالبحث والقراءة والتأويل والتي مثلت أرقى نصوص الرفض والتمرد ونشيد الحرية، والتخلص من كل ما هو قبلي سلطوي، لامية الشنفرى أو ما يصطلح عليه بنشيد الحرية. إذ مثلت القصيدة اعتاقا تراثيا على عديد التأويلات، لذلك يهدف البحث إلى قراءة لامية الشنفرى مع قصيدتين إحداهما لتأبط شرا، والأخرى لعروة بن الورد، باعتبار هذه القصائد أشهر النصوص الثلاثة في عالم الصعلكة، ولاكتمال نصوصها وتميزها فنيا، مشيرا في الوقت نفسه إلى أن كل القراءات النقدية التي أنتجت النص الصعلوكي قد تتفق على أنه نص ثوري متمرد.

## 2. القراءة التأويلية للقصيدة الصعلوكية عند أدونيس

فمن القراءات التي حاولت أن تقرأ القصيدة الصعلوكية قراءة معاصرة منفتحة الدلالة، قراءة أدونيس في كتابه "كلام البدايات" إذ حاول وفقا لآليات المنهج التأويلي أن يستن بالنص الصعلوكي سنة جديدة بعيدة عن القراءة السطحية أو النظرة الشوفينية، على أنها قصيدة خارجة عن قانون الشعرية الجاهلية كما حدث في النقد العربي القديم.

وهنا يتوسل أدونيس، بأدوات المنهج التأويلي، لتحليل النص الصعلوكي من عتمة الجمود والركون في ثنايا القراءة السطحية إلى أبعد ما يكون في التأويل، من منظور ما تبدى له من قيم تحريرية في العصر الحديث، وما تراه إيديولوجيته من خلال قراءته للمذاهب التحريرية الغربية، وبذلك يلاحظ أن علاقة الشنفرى الأنا والآخر (القبيلة)، هي علاقة الرفض/ اللانتماء، وهذا ما يعلنه في أول قصيدة -باحث عن فضاء الحرية -أوسع ما تحتويه قبيلته. فالعلاقة بينه وبين القبيلة علاقة تضاد وصدام، لأنه الفرد الفذ الذي يتميز بالبطولة ويتغنى بها، وله صفات ليس في غيره من القبيلة، لذلك نجد يحاول التفرد والتميز، وأنه يستطيع أن يرحل بعيدا عن قبيلته، ويخلق مجتمعا غيرها.

## 1.2. القصيدة الصعلوكية/ نص الرفض

فالشنفرى بطل في تحقيق فردانيته، لذلك رفض الانتماء إلى القبيلة، "أو رفض رابطة الدم، من أجل إقامة رابطة من نوع آخر، قد تكون النواة العربية الأولى للرابطة الطبيعية، ولا يستند إلى شعور بالواجب، بل إلى الفردية التي تحس إحساسا طاعيا، أنها قادرة على هدم قانون الضرورة، وتحقيق ما يعتبره العقل مستحيلا"<sup>1</sup>، والمستحيل هنا خرق النظام الاجتماعي المألوف، بل يسعى إلى فرض نظام آخر لا يتقبله المنطق والعقل، وأقصد به العيش في مجتمع الوحوش، الذي يصوره الشنفرى وغيره من أتباعه في نصوصهم الشعرية، وبالتالي فإن حياته ستكون "خارج قومه مشروع بحث، ومشروع انتظار، بحث عن قوم آخرين، وانتظار لملاقاة ما كان يفتقده عند قومه، سيكون هاجسه الرئيس، فيضفي عليها الصفات التي تسوغ له أن يرفض قومه، وأن يختار قوما آخرين، ثم أن يرسم هؤلاء القوم الذين يختارهم، بحيث يتم اللقاء والتطابق بينه وبين نفسه من جهة، وبينه وبينهم من جهة ثانية"<sup>2</sup>.

فالشنفرى في بيانه التأسيسي لحركة الصعلكة، يضع الخطوط العريضة لطريق المنهج الذي يسلكه، ويرسم من خلاله أفكاره ورؤاه وفقا للحطاب الموجه إلى قبيلته بكل ما تحويه من قيم ونظم، ويضعها "لا موضع التساؤل وحسب، بل موضع الرفض أيضا، وهي في هذا نموذج شعري من نماذجنا الشعرية الأولى التي تثير من المشكلات أكثرها تعقيدا، وأكثرها شعرية في آن : مشكلات العلاقة بين الأنا والآخر، بين الذات والمجتمع، ومشكلات اشتراق مجتمع آخر ينهض على قيم مغايرة، وتلك هي مشكلات الحرية والرغبة، مشكلات الحياة والتغير، ومشكلات الإبداع"<sup>3</sup>.

إن سياق القراءة التأويلية عند الناقد أدونيس يندرج ضمن قضية الشرح والتمزق النفسي الذي يعيشه الشنفرى، وهو ما يشعر به النص الذي يتأوله النقد. إنه نص الخروج الرفض التناقض، أو التنافر

هنا "بين خروج الشنفرى من قومه ودخوله في قوم آخرين، فترى مسافة من الشعور بالتناقض وبأنه لا هوية له، ومن هنا يتخلل القصيدة مناخ التمزق، ومناخ الفاجعة على من أنه هو الذي تتحرك فيه ظاهريا"<sup>4</sup>. فتنبئ قراءة أدونيس على قضية الخرق والخروج عن نخط الجاهلي بكل ارتباطاته وقيمه اتجاه القبيلة الأم، أو السيد الذي لا يكمن لأحد أن يخرج عن طوعه، بل "يخرق قانون القبيلة، لا يخرقه لكي يجعل من نفسه سيدا يستعبد الآخر، أن يسلبه حقه، وإنما يخرقه لكي يشير عبر عيشه في عالم الحيوان الذي لا قوت فيه، إلى وجوب تأسيس عالم لا أمر فيه ولا نهي، لا أمر ولا مأمور، أي ليس فيه غير الطبيعة والحرية"<sup>5</sup>.

فالنص الصعلوكي بحسب هذه الرؤية، إنما هو نص متحرر متحرك يأبى الجمود، ويرقى إلى التجدد والتحرك الدائب، إنه العالم القلق الدائم البحث عن الحرية وعدم الاستقرار في سكون الطبيعة التي جمدها قوانين القبيلة ونظمها المحففة، ولا هم للصعلوك في هذا العالم، إنما عالمه هو أن "يعيش فيه كفرد في حركة دائمة من الحركة، لتحقيق ذاته داخله وضمن حدوده"<sup>6</sup>.

إن الثورة التي يعلي من شأنها الشنفرى، وبعلمها صراحة ليست من الشرائع الدينية في عالم مادي وثني أو ما يسمى التوحيد، أو ثورة تصارع عوالم الغيب وقواه الخارقة، وإنما نظرتة تؤسس ثورة على وجه الواقع والحقيقة فوق الأرض التي يحيى فيها وينتمي إلى أساسها، "ولما كانت الأرض مملكة الإنسان فإن ثورة الشنفرى إنما هي الإنسان لا على الغيب، هو إذا لا يرفض العالم، وإنما يرفض صورته السائدة، إنما يتمسك بالعالم، لكنه يقدم له صورة أخرى بقانون آخر"<sup>7</sup>.

لقد خلق الشنفرى نصه وفق مشكلات كان تفرقه، باحثا لها عن حل في هذا النص الذي بين أيدينا، إذ المعضلة التي تطرحها قصيدته بكل معان ودلالات، "هي في التناقض بين الحرية والحدود التي يصدم بها من كل جانب، يريد أن يمحو هذا التناقض، أن يقضي على السائد الظاهر في هذا العالم، ويستدعي عالما آخر، عالما بلا عبودية"<sup>8</sup>. هذا العالم كما يصوره شعره فيه الإخلاص والتساوي بين الذين يعيشون فيه، إنه العالم الصادق للصديق الذي لا يحمل القهر والطبقية، إنه عالم آخر، ومن أجله "يتخلى الشنفرى عن الإنسان، يصادق الحيوان، امتداح الحيوان، وإعلانه صديقا، يعنينا الخلاص من عالم القمع، لكنه في لجوئه إلى الطبيعة إلى مجتمع الحيوان لا يشير ضد الإنسان، وإنما يشير لمجتمع أكثر إنسانية، إنه وعيه طوباوي، لكن في اتجاه الغير"<sup>9</sup>. يقول الشنفرى:<sup>10</sup>

وَلِي دُونَكُمْ أَهْلُونَ: سَيِّدٌ عَمَلَسٌ وَأَرْقَطُ زُهْلُولٌ وَعَرَفَاءُ جِيَّالٌ

هُمُ الْأَهْلُ لَا مُسْتَوْدِعَ السَّرِّ دَائِعٌ لَدَيْهِمْ وَلَا الْجَانِي بِمَا جَرَّ يُخَذَلُ  
وَكُلُّ أَبِيِّ بَاسِلٌ غَيْرَ أَنِّي إِذَا عَرَضْتُ أَوْلَى الطَّرَائِدِ أَبْسَلُ  
وَإِنْ مُدَّتِ الْأَيْدِي إِلَى الرَّادِ لَمْ أَكُنْ بَأَعْجَلِهِمْ إِذْ أَجَشَعُ الْقَوْمَ أَعْجَلُ

وهكذا نلاحظ اتضاح الدلالات والقراءات من خلال المنتج الذي تحيل عليه القراءة النقدية، التي نحن بصدد استعراضها، لأنها قراءة تؤول وتحلل وتنطق النص وفقا لمعايير أكثر جدية مما كانت عليه القراءات الجامدة. إنها تفلسف النص وتحركه نحو تأصيل وعي بفلسفة الشنفرى، من خلال ما يراه أدونيس بأن الشنفرى كان رومانطيقيا، " وهي رومانطيقية ترمدية آملة، انتفضت أساسا على رفض القانون واللاخضوع، وعلى أن الحياة بفرح وحرية هي القانون، وعلى أن كل ما هو حياة، يؤكد الحياة لا خطيئة فيه، بل إنه على العكس مقدس"<sup>11</sup>. إن التمرد كسر للمألوف، واختلاق عالم آخر، ينبذ العزلة والتهميش، ويؤسس لكسرها بجنون رؤيته التي هي كفيلة بمدم تلك المنظومة القيمية المتعارف عليها.

إن هذا الإنتاج الدلالي الذي تطرحه القراءة التي نهجها أدونيس تعدّ مغنما جديرا بالاهتمام لما يحيل إليه من إفرازات معرفية في الحقل المعرفي للشعرية الجاهلية، وبالتالي يتجلى لنا من خلال هذه العمليات القرائية المتوسلة بآليات إجرائية معاصرة أن النص الصعلوكي هو نص تضاد وتصادم مع النظم والقيود القبلية، هو نص طرح الإنسان خارج كل الحدود والقيود، وهو بذلك يخلق إنسانا ثائرا بفضل هذه الرومانطيقية إن جاز لنا التعبير التي يتبناها الشنفرى في نصه.

إن قراءة أدونيس جاءت في سياق تأويلي مختلف تماما لما تشكل من تصورات عن شعر الصعاليك، بوصفه نصا هامشيا لا حظوة له في النقد العربي، بما أنه لا يمثل النص الجاهلي في قد شببيه، هذا النص الهامش قد نقرأه ونقر به في ظل التغيرات والثورات المعاصرة في المجتمعات الحديثة، التي ثارت على الطبقيّة والاحتكار والفقير، وما إلى ذلك من القيم الأخلاقية التي تغيب في المجتمعات نظرا لعقلية الاستبداد في العالم الانساني، لذلك عندما نحفر في ثنايا قراءة أدونيس نجد أنها أنتجت خطابا دالا جديدا يتسم بالمعاصرة، ويتوازي مع كثير من القضايا التي يعاينها الانسان العربي حتى الآن، هي نفس المشكلات التي عاشها الصعاليك في ذلك الوقت، فإنتاج الدلالة من العنوان الذي هو شعرية الرفض وما تمخض تحتها من إحساس بالنفور والإحباط من القبيلة، مما جعله يؤسس بيانا عاما للصعلكة وهو الخروج عنهم وإخراجهم من دائرته، بل استبدالهم ببديل موضوعي هم قوم آخرون كما يتصورهم الشنفرى نفسه.

## 2.2. الإيديولوجي في القصيدة الصعلوكية

وعندما يقرأ أدونيس عروة بن الورد، يرى أن نصوصه الشعرية تحول في طياتها معاني سامية وذات رسالة إنسانية، وفي آن واحد اقتصادية، إذ يحدد عروة بن الورد معالم الشخص الأخلاقي، والشخص الوظيفي الذي يسعى لحمل رسالة الصعلكة والعمل عليها، وفق القانون الذي رسمه سيد الصعاليك، وهو ما يجيده في رأيته المشهورة:<sup>12</sup>

لحى الله صعلوكًا إذا جنَّ ليلُهُ  
مُصافي المشاشِ ألقا كلَّ مجرَّرٍ  
يُعْدُ الغنى من دهره كلَّ ليلةٍ  
أصاب قراها من صديقٍ مُيسَّرٍ

ويتضح من خلال هذه القصيدة "أن شعر عروة بيان عمل وممارسة أخلاقية، وتتجلى هذه الممارسة في بطولية تتخذ من الإنسان بدايتها ونهايتها، فعروة لا يموت طمعا بما ينتظره وراء الموت، بل يموت لأنه يجب الإنسان، إن موته كحياته، وفاء للإنسان"<sup>13</sup>. إن دلالة المفردات والألفاظ والعبارات التي تتكرر بصورة نمطية في شعره وفي شعر غيره من الصعاليك، انفتحت على الأبعاد الأخلاقية والاقتصادية في أكثر من موضع، بل نظرت الاشتراكية العملية بين الصعاليك والتوافق الطبيعي الذي يحقق ميزان العدل بين الناس، "فتكشفت المفردات والتعابير في شعر عروة بن الورد عن هاجس أخلاقي اجتماعي في العام الأول، مدار هذا الهاجس الاقتصادي، طرفاه الغنى والفقر، لكنه يتطلع إلى حالة ثالثة يسميها - الشركة - أي إلى حالة من العدالة والحق، وفي تطلعه إلى تحقيق هذه الحالة يؤسس ملكية أخلاقية وعملية"<sup>14</sup>. يقول عروة بن الورد :<sup>15</sup>

دَعيني للغنى أَسعى فإني  
رَأيتُ الناسَ شَرُّهُمُ الفقيرُ  
وَأبعُدُهُمُ وَأهوئُهُمُ عَلَيهِمُ  
وَإن أَمسى لَهُ حَسَبٌ وَخَيْرُ  
وَيُقصيه النديُّ وَتَزديهِ  
خَليلَتُهُ وَيَنهَرُهُ الصَّعيرُ  
وَيُلقي ذُو الغنى وَلَهُ جَلالٌ  
يَكادُ فُوادُ صَاحِبُهُ يَطيرُ  
قَليلٌ ذَنبُهُ وَالذَنبُ جَمٌّ  
وَلَكِن لِلغنى رَبٌّ عَفورُ

إن عملية الإنتاج الدلالي من خلال قراءة القصيدة الصعلوكية عند عروة، تتسع لتشمل قراءة واعية لكل الألفاظ والعبارات وتأويلها داخل سياق اقتصادي في ذلك الوقت، ألا يعد هذا منظورا تبنى عليه القضايا الاقتصادية الكبرى في العالم الآن، الذي نشهد فيه هذه الخطابات مثل الاشتراكية والرأسمالية التي خلقتها الخطابات السياسية في أوقات وأزمنة غير متباعدة، أفليست هذه النصوص الشعرية بما تحمله من

ألفاظ ومعان ذات أبعاد اقتصادية. إنَّ مثل هذه العبارات والسياق الذي ترد فيه، يكشفان عن رفض عروة للواقع الاقتصادي آنذاك، ويكشفان تبعاً لذلك عن رفضه للبنية السياسية التي تهيمن على هذا الواقع، وهذا ما يضيف على مقالته الشعرية طابع الرسالة، وتكشف على أنه فرد يربط مصيراً جوهرياً، أو بدئياً بجماعة أخرى غير القبيلة<sup>16</sup>.

إن عملية إنتاج الدلالة من منظور القراءات المعاصرة من منطلق المناهج التي تهتم بهذه القضايا، لم تتوقف عند ناقد دون غيره وإنما كثرة القراءات التأويلية للقصيدة الصعلوكية لما مثلته من نص يضاد ويصادم المركزية القبلية.

### 3. القراءة التأويلية للقصيدة الصعلوكية عند كمال أبوديب

غير بعيد عن قراءة "أدونيس" أولينا لقراءة "كمال أبو ديب" عناية لبحثه حول النص الصعلوكي، الذي قرأه من منظور المنهج البنوي تماشياً مع الحركة الدلالية واللغوية في إطار القصيدة الصعلوكية، مما يساهم في إعطاء تأويل معاصر لهذه الظاهرة.

#### 1.3. ثقافة الضد في النص الصعلوكي

تميزت قراءة "كمال أبوديب" للقصيدة الصعلوكية بأنه أحدث خلخلة في النص الشعري وبناء عوالمه الكلية، وقد اعتمدت هذه القراءة ثقافة التضاد والتصادم، وهو ما قصده الناقد بالهامش المركز، فلم يقتصر في دراسته على أن الصعلكة ظاهرة فنية في الشعرية الجاهلية فحسب، بل حاولت القراءة تحليل مضمرات الخطاب الصعلوكي وأثره دلالاته على النسق العام في الثقافة الجاهلية، وهو ما عبر عنه في قوله: "ليس غرضي في هذا الفصل تقديم دراسة شاملة لشعر الصعاليك، بل موضوعة المكونات الأساسية لعالمهم الشعري في الإطار التصوري المطور في هذا البحث، وأود لهذا الغرض أن أشير إلى التميز الذي قدمته في نهاية الفصل الثاني بين الرؤية المركزية للثقافة التي اقترحت أنها تتجسد في المعلقات بوصفها بنية واحدة كلية، ورؤيا الثقافة المضادة *Contre culture* التي اقترحت أنها تتمثل في شعر الصعاليك"<sup>17</sup> فقد مثلت القبيلة وحدة ثقافية متكاملة من حيث النظام والقانون وحتى السنن المعيشية والفنية، إذ كان الفرد مرتبطاً بها أيما ارتباط، ويلهج بذكرها في شعره حرباً وسلماً وارتحالاً، في حين كانت هناك نظرة مضادة لهذه الثقافة المركزية التي حاولت أن تنخلع منها وفقاً لرؤيتها ومنهجها في الحياة.

وقد تمثلت نزعتها في الخروج عن كل ما هو معروف ومألوف في هذه الثقافة؛ "لأن رؤيا الثقافة المضادة تشتغل وتتجلى في مسافة الخروج عن هذه البنية، وخلق فضاء اجتماعي، اقتصادي للفعل

الانساني يقع خارج القبيلة<sup>18</sup>. إنه إلغاء لكل المرجعيات القبلية، وإعلان المركزية للذات الفردية ضد كل قوانينها ونظمها، ولما كانت هذه الذات فردية تخلت عن الوحدة الشكلية في القصيدة الجاهلية، والتغني بها في القصائد الطوال -القبيلة- التي كانت تمثل الوحدة الجوهرية والمركزية في الثقافة القديمة للشعرية الجاهلية. أما "القبيلة" فقد ظلت الموضوع الهاجس الذي تبنى عليه القصيدة الجاهلية كالحمة ينسجم معها الفرد ويتماهي فيها حتى الذوبان، فالقبيلة بالنسبة للشاعر الجاهلي هي الرحيل أو الاستقرار، وكل حسده في شعره، أما "في شعر الصعلكة لا تظل القبيلة تشكل وحدة متجانسة مترابطة، كما كانت مثلا في شعر لبيد، ولا تعد القبيلة الإطار المرجعي الذي يتحدد ضمنه نظام القيم ودور الفرد وعلاقته بالجماعة، بل تنفصم القبيلة وتكشف انعدام التجانس فيها، وتبرز التناقضات التي تشرح بيئتها لتنشأ وحدة جديدة، تصبح الإطار المرجعي لتصور الشاعر للعالم ولنفسه، هي الفئة الاجتماعية أو الطبقية"<sup>19</sup>.

### 2.3. تقويض المركز في النصوص الصعلوكية

إن البناء الجديد للثقافة المضادة هو إلغاء لكل ما هو مركزي قبلي، وتعويض للطبقية وكل طقوس القصيدة الجاهلية، فهي إلغاء لذلك الهيكل الشعري الذي يرتبط بالمكان زمنيا، "لينشأ اهتمام جديد بالسلوك المعين بعلاقات الصراع المادية واليومية، بين المحروم والغني، والأدنى والأعلى، والأبيض والأسود، لأي طبقتين، والتركيز على العالم الحاضر الفيزيائي"<sup>20</sup>، ففي القصيدة المركزية تغني الشاعر الجاهلي بالمكان بوصفه انتماء والتصاقا بنفسه وهويته، فيكيه يندب طلله وأثافيه حتى يفارقه أو يرتحل عنه، وهذا يجسد في التركيبة الثقافية العامة (المركزية القبلية)، "أما حين يبرز المكان في نص الصعلكة، فإنه يبرز بصورة مغايرة لبروزه في النص الطقوسي، يبرز مسرحا في فاعلية الفرد، أو حلما، أو تجسيدا للانفصام عن مكان الآخر وزمانه -القبيلة- والتوحد بالمجهول، باللامسمى، بأما الحرية والوحدة والخشونة الطبيعية"<sup>21</sup>.

ففي القصيدة الصعلوكية يلغى المكان، ولا توجد في نصوصهم وجهة معلومة، بل يبقى بلا هوية وبلا علامة، فالمكان في النص الصعلوكي مكان يحل فيه أو يتبطنه، إنه المكان الذي يتوحد معه ويزدوب فيه وتنجس ذاته في عالمه، "لذلك يقف نص الصعلكة نقيضا، أو بذلك يجسد نص الصعلكة طبيعته المضادة لنص الرؤيا المركزية"<sup>22</sup>. يقول تأبط شرا في قافيته:<sup>23</sup>

وَقُلَّةِ كَسِنَانَ الرُّمَحِ بَارِزَةَ	ضَحِيَانَةَ فِي شُهُورِ الصَّيْفِ مِحْرَاقِ
بَادَرْتُ فُتَّتَهَا صَحِيٍّ وَمَا كَسَلُوا	حَتَّى تَمَيَّتْ إِلَيْهَا بَعْدَ إِشْرَاقِ
لَا شَيْءَ فِي رَيْدِهَا إِلَّا نَعَامَتُهَا	مَنْهَا هَزَيْتُمْ وَمِنْهَا قَائِمٌ بَاقِ

بِشَرِّتَةٍ خَلَقِي يُوقَى الْبِنَانُ بِهَا شَدَدْتُ فِيهَا سَرِيحًا بَعْدَ إِطْرَاقِ

تقارب قراءة أبو ديب المكان زمانيا لما يمثله من انفصام وانفصال شخصية الصعلوك عنه، لأن ارتباطه بالمكان غير المكان الذي تمثله الثقافة الجاهلية، إذ يمثل المكان الذي يتحدث عنه الصعلوك زمن العزلة والانتماء، " وهو على صعيد أعمق تجسيد لتضاد أعورا هو تضاد الثقافة الطبيعية كما يصفه كلود ليفي ستراوس، فعالم القبيلة، على بدائيتها، هو عالم الثقافة، لأنه عالم التجمع ونصب الخيام، وخلق الثبات النسبي وصناعة الأشياء، أما عالم الطبيعة فهو العالم النير النقي الذي لا ثبات فيه لأشكال حياة جماعية، وفي صورته هذه يكون المكان في نص الصعلوك تجسيدا للانفصام الحاد بين الذات الفردية والذات الجماعية، الانفصام أيضا يتجلى على صعيد القيم، والتطلعات وتصور الفرد لوجوده وعلاقته بالجماعة، وبنية القصيدة، ودور الشكل والطقوس في خلق الفن والنص والتجربة"<sup>24</sup>، غير أن فلسفة المكان بالنسبة للشعراء الصعاليك تختلف عن ما يشكله الشعر المركزي الجاهلي في عمومته من طلل وحنين وموت وتمالك، ولا شك أن المكان في النص الصعلوكي يشكل بؤرة قوة وهيمنة وتحد وملاذ آمن من الأعداء.

وهذا الذي يتجسد في حديثهم عن أماكن الفرار والاختباء والمراقبة للأحداث والأعداء، فالمكان -الصحراء- يشكل للصعلوك القوة والصمود؛ لأنه يطرح كل ما يتعلق بأفانين القبيلة من ملامح الارتحال، " والصعلوك عندما يقاوم الصحراء، ويجهاد لكي يقطعها، لم يكن يفعل ذلك من أجل احتيازها، ولكن من أجل أن يصل إلى المرقبة، فمن فوق هذه القمة المشرفة على الصحراء، يصل إلى لحظة التنوير الخاصة به، ويبدو أن شعر المراقب لدى الصعلوك ينبع من فلسفة يعيشها تتمثل في تلك اللحظة المضيق التي يشرق فيها الصعلوك مثل الكون والصحراء"<sup>25</sup>.

إن القصيدة الصعلوكية في بنائها الذي شيدته، تلغي المنظومة المركزية وكل ما يتصل بها من قيم احتفائية، وطقوس عبور نسجتها ثقافتها البدائية. إنها تبحث عن ذات الإنسان وتمجده وتعطيه القوة وإثبات الذات في المجتمع والكون؛ لأنها تبدأ بإعلان التمرد وعدم الانتماء إلى هذا المجتمع البشري والبحث عن مجتمع جديد، قد يكون في الغالب وحش الصحراء، أو بتعبير آخر إعلان القطيعة والبحث عن البديل، أو التغيير، " ونص الصعلوك تحديدا هو نص الأنا، لكنها أنا قلقة تبحث لا من أجل أنويتها بل من أجل تغيير العالم: من أجل تدمير آثار التركيبة الطبقيّة للقبيلة، من أجل أن تنقذ المسحوقين والمحرومين"<sup>26</sup>، بهذا التناسل والتوالد الدلالي لنص الصعلوك بكل ما حواه من رؤى وإيديولوجيات غيرية،

يعطينا دوماً في ثناياه إحساساً بالغرابة والثورة والتمرد، إذ نجد نصاً يقطر بالمآسي والآلام والمعاناة التي يعانيها أفرادها في دهاليز الصحراء، من جوع وتشرد وخوف ورعب يدهم الصعلوك في أحاسيسه، وآلام يقاسيها في جسمه، من أثر البرد والحرق الذي يلاقيه في رحلته الشاقة.

### 3.3. نص التراجيديا في القصيدة الصعلوكية

ينتج إذن لنا النص الصعلوكي نصاً تراجيدياً محملاً بالمآسي والمتاعب التي يلاقيها الصعلوك في رحلته اللامتناهية داخل الصحراء، " والتراجيديا مصطلح جمالي مبني من حيث المفهوم المجرد على كل ما له علاقة بالمأساة، ويقابله المأسوي أو المأساوي، وهو يشكل بعد تحوله من المفهوم إلى القيمة أحد الموضوعات الأثرية التي تستهوي المبدعين، لذلك فالتراجيديا يعد من أبرز مظاهر الإبداع الأساسية، إلى جانب القبيح والكوميدي والخليل"<sup>27</sup> وتتأولي لهذا المفهوم، فإن القصيدة الصعلوكية تعطينا صورة نمطية لحياة الصعلوك ورؤيته للعالم، والتي كانت في محملها مكابرة عن مأس وجراح لما حفلت من حياة الفقر والجوع والتشرد، وما حملته من معان الفرار والقتل والانزلال عن الحياة البشرية العادية، والعيش داخل حياة التوحش والهلاك في وسط المجتمع الحيواني، الذي يعتمد على مبدأ القوة، والذي لا تحميه إلا قوانين الفطرة المبنية على الغريزة.

كما أن المناخ لعب دوراً هاماً في رسم خيوط التراجيديا في الشعر الجاهلي عموماً، وعند الصعلوك خاصة، هذا الفراغ والرحيل المستمر "والفراق والتنقل وعدم الاستقرار، واتساع الصحراء غير المحدود، والظلمة الموحشة، والخوف والصدام بين بعض الشعراء وأنظمة قبائلهم، كلها أسباب أساسية كانت وراء العثور العنيف للتراجيديا في الشعر الجاهلي"<sup>28</sup>.

ويمكن اعتبار ظاهرة الصعلوكية ظاهرة تراجيدية بامتياز، إذا نظرنا إليها من عدة زوايا جادة في التحليل، وآخذنا بمأخذ الجذع السبب الرئيسي لنشأتها، والذي أفرز عدم التوازن والتواءم بين رغبات الفرد وقبيلته، ومعناه أن الصعلوك لم يستطع أن يحقق ما كان يلحم به من رغبات، بسبب منع وصدّ لاقاه من قبيلته، وهو على هذا يمثل الصدام بين الفرد والقبيلة، وهذا التصادم كسر الحلم الذاتي للصعلوك فيما يصبو إليه، وزعزع ثقته بالقبيلة، فكانت حياة الصعلوكية "التي مثلت ظاهرة تراجيدية عزفت لحن الشعور بعدم الانتماء، والعزوف عن المجتمع البشري الذي لم يعط لهذا الفرد الحق بالتمتع بكامل صلاحيته داخل القبيلة، ثم إن الحزن والإحباط والتمزق، والشعور الدائم بأنه متروك كان دافعاً قوياً للتحدي ورفع وجه

الظلم في شعره للمجتمع الذي نفاه، وللطبيعة ذاتها التي قست عليه، ولذلك نراه يجسد قدرته في الشجاعة والعدو والكرم والإيثار، ومقاومة الجوع والعطش والوحوش الكاسرة وجفاف الصحراء<sup>29</sup>.  
ثم إن من أرقى الدلالات الفنية والجمالية التي أنتجتها القصيدة الصعلوكية، هي فلسفة الرفض وعدم الانتماء، وعلينا أن نعتبرها نصوصا متميزة لذلك العصر بطابعها الثوري على جميع القيم السائدة، وعلينا أن نقرأها على أنها نصوص رافضة متمردة، كما يرى الناقد بوبعوى تعليقا على ذلك بأن نص الصعلوك هو "نص الرفض أو نص التمرد على قيم القبيلة، ولكن هذا الرفض أو ذلك التمرد لا ينطلقان من المنظور اللغوي، أي اللغة التي استعملت في الجاهلية كأداة لصياغة التشكيل الشعري، ولم تختلف من حيث وظيفتها وتراكيبها، فاللغة حافظت على وحدانيتها لدى الصعاليك وغير الصعاليك من شعراء الجاهلية، ولكن الذي اختلف هو ماهية الخطاب الجديد المتمثل في طبيعة الموضوع الذي مثل ثورة على المفاهيم السائدة، والذي يصل أحيانا إلى درجة اختراق القيم، عندما يتعلق الأمر بالرغبة في تحقيق غاية منشودة"<sup>30</sup>، لقد مثل النص الصعلوكي في رأي الباحث نزعة ثورية هروبية من الواقع القبلي الذي كان يعيش فيه الحرمان والطبقية، وهي مفاهيم حاول هذا النص التمرد والثورة عليها.

#### 4. خاتمة

- جاءت القصيدة الصعلوكية بكل أبعادها الفنية تحمل الرؤى نفسها، والفلسفات الاجتماعية والاقتصادية التي كان ينظر لها من خلال تمردهم على القبيلة، وعلى نظام القصيدة بوجه عام.  
- انزاحت القصيدة الصعلوكية في دلالتها بجماليات في الشعرية العربية، التي لم تشهدا القصيدة الجاهلية إلا في نصوص الصعلوكية، وهذا ما يلاحظه القارئ المتأمل لجل نصوصهم الشعرية.  
- إن التمرد في القصيدة الصعلوكية لم تمتد يده إلى القبيلة وأفرادها فقط، بل امتدت لتشمل النص الإبداعي الجاهلي المتمثل في الشعر، وهذا ما يمتد إلى الشاعر الصعلوك إذا لم تحتويه قبيلته لم يحتويها هو أيضا في شعره، ولم يرق لها وزنا في قصائده التي تنزاح برؤى ضدها وليس معها.  
- لم يعن هؤلاء الصعاليك بتمثيل القبيلة والتعبير عنها، بل انفردوا بأنفسهم في الحياة، وانفردوا بها في الشعر، فجاءت قصائدهم مثالا قويا لشخصياتهم وسلوكهم. لا يكتفون منه شيئا، ولا يقصرون في التعبير عنه، فامتازوا بالصدق والصرامة والقوة، وظهرت هذه الصفات في فنهم.

## هوامش:

- 1 أدونيس: مقدمة للشعر العربي، (1983) دار العودة، (لبنان) ط4، ص 19.
- 2 أدونيس: كلام البدايات، (1989) دار الآداب، بيروت، لبنان، ط1، ص 87.
- 3 المرجع نفسه، ص 88.
- 4 المرجع نفسه، ص 89
- 5 المرجع نفسه، ص 91
- 6 المرجع نفسه، ص 91.
- 7 المرجع نفسه، ص 92.
- 8 المرجع نفسه، ص 92.
- 9 المرجع نفسه، ص 92.
- 10 ديوان الشنفرى تحقيق إميل بديع يعقوب (1996) دار الكتاب العربي (بيروت) ط2 ص60
- 11 أدونيس: كلام البدايات، مرجع سابق، ص 94.
- 12 ديوان عروة بن الورد أمير الصعاليك، تحقيق أسماء أبو بكر (1997) دار الكتب العلمية (لبنان) ص67.
- 13 أدونيس: كلام البدايات، مرجع سابق، ص 111.
- 14 المرجع نفسه، ص 107.
- 15 ديوان عروة بن الورد ص79.
- 16 أدونيس: كلام البدايات، ص 108.
- 17 كمال أبوديب: الرؤى المقنعة نحو منهج بنيوي لدراسة الشعر الجاهلي، (1986) الهيئة العامة المصرية للكتاب، (مصر) ص 575.
- 18 كمال أبوديب: الرؤى المقنعة، ص 575.
- 19 المرجع نفسه، ص 576.
- 20 المرجع نفسه، ص 577.
- 21 المرجع نفسه، ص ن.
- 22 المرجع نفسه، ص 578.
- 23 ديوان تابط شرا وأخباره تحقيق علي شاکر ذو الفقار، (1984) دار الغرب الإسلامي ط1. ص126.
- 24 كمال أبوديب: الرؤى المقنعة، ص 579.
- 25 ثناء أنس الوجود: دراسات تحليلية في الشعر القديم، (2000) دار قباء، (مصر) ص 145.
- 26 كمال أبوديب: الرؤى المقنعة، ص 583

- <sup>27</sup> عبد الله بن خلف العساف: الصورة الفنية لحقول التراجيديا في الشعر الجاهلي، (1421هـ) مجلة أم القرى لعلوم الشريعة واللغة العربية وآدابها، السعودية، ع21، ج13، ص1278.
- <sup>28</sup> المرجع نفسه، ص1279.
- <sup>29</sup> المرجع نفسه، ص1295.
- <sup>30</sup> بوجمعة بويعيو: جدلية القيم في الشعر الجاهلي رؤية نقدية معاصرة، (2001) اتحاد الكتاب العرب، (سوريا) ص74.

## 6. مصادر ومراجع البحث:

1. أدونيس: كلام البدايات، (1989) دار الآداب، بيروت، لبنان، ط1.
2. أدونيس: مقدمة للشعر العربي، (1983) دار العودة، (لبنان) ط4.
3. بوجمعة بويعيو: جدلية القيم في الشعر الجاهلي رؤية نقدية معاصرة، (2001) اتحاد الكتاب العرب، (سوريا).
4. ثناء أنس الوجود: دراسات تحليلية في الشعر القلم، (2000) دار قباء، (مصر).
5. ديوان الشنفرى تحقيق إميل بديع يعقوب (1996) دار الكتاب العربي (بيروت) ط2.
6. ديوان تابط شرا وأخباره تحقيق علي شاکر ذو الفقار، (1984) دار الغرب الإسلامي ط1.
7. ديوان عروة بن الورد أمير الصعاليك، تحقيق أسماء أبو بكر (1997) دار الكتب العلمية (لبنان).
8. عبد الله التطاوي: الشاعر مفكراً، دار غريب للطباعة والنشر، (مصر) دط، دت.
9. عبد الله بن خلف العساف: الصورة الفنية لحقول التراجيديا في الشعر الجاهلي، (1421هـ) مجلة أم القرى لعلوم الشريعة واللغة العربية وآدابها، السعودية، ع21، ج13.
10. كمال أبوديب: الرؤى المقتنعة نحو منهج بنيوي لدراسة الشعر الجاهلي، (1986) الهيئة العامة المصرية للكتاب، (مصر).